تدريجيا، نقيض الطرح الرجعي، وسوف يتطور، تدريجيا، الفهم العام للاحداث ولمعانيها الاجتماعية: ولكن الاطراف التقدمية يمكن ان تقوم بتعجيل العملية التاريخية وان تساعد، بذلك، على حماية قواعدها وجماهيرها من تأثيرات الحرب النفسية ومن هجمات الثورة المضادة: وليس هذا فحسب، وانما يفيد النشاط التقدمي، الثقافي ـ الاعلامي، في تصعيد الكفاح المعادي للامبريالية وفي تعجيل الانتصار بالنسبة للقضية السياسية.

لكن، لا تقتصر المعركة الايديولوجية الاعلامية على الساحة العربية. هناك الساحة العالمية الاوسع، وفيها يصبح التعاون بين البلدان الاشتراكية والاطراف العربية التقدمية اهم بكثير. في هذا المجال، ان التحالف الوحيد الطرف الذي يقع فيه الالتزام على الجانب الاشتراكي وحده قائم الى حد كبير. ففي كل الاوساط الدولية التي للبلدان الاشتراكية فيها تأثير، بما فيها الامم المتحدة، تطرح قضية فلسطين والقضايا العربية في مقدمة القضايا الدولية الاخرى، اما الاطراف التقدمية العربية، فغالبا لا تطرح القضايا الدولية الاخرى ذات الاهمية الكبيرة في الصراع مع الامبريالية، الا بتحفظ شديد وبشكلية واضحة، وفي اطار مؤتمرات دولية تحمل عن الطرف العربي التقدمي هذا العبء، مثل مؤتمرات التضامن الافريقي ـ الآسيوي، الخ.

لم نر، مثلا، طرفاً تقدمياً عربياً يطرح قضايا السلام العالمي بقوة على منابره. ولم نره يقوم بتسيير المسيرات من اجلها، مع ان قضايا السلام العالمي ذات اهمية مصيرية لكل انسان تقدمي في العالم. لم نجد طرفاً تقدمياً عربياً، ايضا، يصرخ في وجه الامبريالية العالمية لترفع يديها عن بولونيا، او يهتف ضد تسليح الفضاء او ضد برامج التسلح الخطيرة. لم نر طرفاً تقدمياً عربياً يحتج، بجدية، ضد غزو غرانادا وضد العدوان على نيكاراغوا. كيف نريد ان يحتج العالم كله على غزو لبنان، ولا نحتج نحن، بالمقابل، على غزو غرانادا.

كثيرا ما يحدث العكس، اي كثيراً ما يتبنى الطرف التقدمي العربي الاطروحات الامبريالية في هذه القضايا، وكثيرا ما يوظف التأييد السوفياتي لقضاياه من اجل «اقناع» الولايات المتحدة. بمعنى، ان حكومة الولايات المتحدة لا تمثل بالنسبة للطرف التقدمي العربي طرفاً امبريالياً، وانما قوة عظمى، يرجّح تقديره لها على تقديره للاتحاد السوفياتي، ويطلب منها «العدل»، حتى... ربما حتى يلتصق بها. التحالف مع الاتحاد السوفياتي هو في هذه الحالة طريق للتحالف مع حكومة الولايات المتحدة، اي مع الممثل الرسمي للامبريالية الاميركية، ومع زعيمة الامبريالية العالمية.

في حالات كثيرة، يقوم الطرف العربي التقدمي بـ «تهديد» الاتحاد السوفياتي بالانتقال الى الجانب الاميركي، وكثيرا ما يتجاوب الاتحاد السوفياتي مع الطرف العربي التقدمي، ويلبي مطلبه، او مطاليبه: والنتيجة الخاطئة، التي تستخلص في هذه الحالة، هي ان الاتحاد السوفياتي «يخاف» من انتقال حلفائه الى الصف المعادي، ولذا يحرص على استرضائهم.

مثل ذلك هو نوع من الخطأ التاريخي والعمى السياسي. اولا، الامبريالية هي معادية للبلدان النامية بالدرجة الاولى، والانتقال الى الصف المعادي للاتحاد السوفياتي هو انتقال الى صف العدو رقم ١ للقضية السياسية التي يمثلها الطرف التقدمي. الاتحاد السوفياتي يستطيع ان «يحمي» نفسه، اما الطرف التقدمي فلا يستطيع، اذا انضم الى صف الامبريالية، ان يحمي نفسه وقضيته، بل وصفته التقدمية كذلك. من جهة اخرى، الطرف التقدمي هو الذي بحاجة الى التحالف مع الاتحاد السوفياتي. هو بحاجة للسلاح السوفياتي، وللدعم السوفياتي من كل نوع، كي لا يتحول الى لقمة سائغة للامبريالية. بالمقابل، ليس الاتحاد السوفياتي بحاجة اليه بالذات...